الإهـداء

إلى شهداء ثورة ٢٥ يناير الأبرار

إلى شعب مصر الثائر العظيم

إلى «جيش التغيير» فى مصر «الجديدة»:

من الذى ينفض عنه العادلون

إذا مضى فى نصرة العدالة؟!

وأى بلسم يَعافُ طَعمه مَن يحتضرُ؟!

وهل يخاف أن يُصيبهُ القذى

من يبتغى إزالة الدنس؟!

وكيفَ تُمسى خيِّراً، وراضىً الجِنان،

إذا أنتَ لم تُغَيِّرَ فى نهاية المطاف العالم؟!

وأنتَ، مَن تكون، أينما تكون

خُض لجَّةَ الأوحال. واجه الطغاة،

وغيِّر العالم أسرع،

لو أنه بحاجةٍ إلى تغيير!»

بريخت

obeikandl.com

قصة هذا الكتاب
لهذا الكتاب قصة تروى !

فلقد صغت فصوله على امتداد الفترة التى سبقت وقائع " ثورة ٢٥ يناير" المجيدة، على أن تخرج مُجَمّعة فى سفرٍ واحدٍ، رأيت أن أسميه " صراع الطبقات فى مصر المعاصرة"، فهو يتناول بالتفصيل تطورات ومجريات هذا الصراع، فى مختلف مناحى الحياة فى مصر، أواخر عهد الطاغية الراحل " حسنى مبارك " وطغمته، بالشرح والتحليل والمتابعة والتوضيح، وصولا إلى يقين لا يشوبه شك، بأن الشعب المصرى العظيم سينتفض، حتما للدفاع عن كرامته المهدرة، وسيثور، لا بد، لاستنقاذ مصيره ومصيروطنه من الكارثة التى تحيق به، جرّاء السياسات المدمرة التى يتبعها النظام على كافة الأصعدة، ولحماية حتى وجوده " البايولوجى"، الذى بات مُهددا تهديدا مباشرا، بفعل عشوائية القرارات، واستئثار قلة محدودة،عاريه عن الوعى بقيمة الشعب المصرى الأصيل، أو بموقع مصرفى مركزالوطن العربى والأقليم، وما يستتبعه ممن أدوار، إلى جانب شيوع الفساد، والتوحش الأمنى، فى مواجهة الجماهير العزلاء، إلا من الإرادة، واليقين، والإصرارعلى الانتصار، مهما كانت الظروف والصعاب ! ؟.

وهى ثقة كانت ترتكزعلى إدراك عميق بأن شعبنا، بتكوينه الحضارى والنضالى الرفيع، لا يُعقل أن يسكت على نظام مستبد وفاسد، وفاشل، حَكَمَ بالحديد والنار، وأشاع مناخا من القهر والتسلط، فأهان كبرياء، وحاصره حتى فى أحلامه، واغتصب حقوق عشرات الملايين من المواطنين، بنهبه لثروات الوطن، وتجريفه لمقدرات البلاد ! .

ويصح، انطلاقاً من هنا، أن نضيف عنوانا ثانويا للكتاب، الذى يبدو كما لو كان نوعا من التأريخ التفصيلى لـ " مقدمات ثورة ٢٥ يناير" المجيدة، فهو يتناول بالتدقيق العناصروالمؤثرات التى مهدت لهذه الهبّة الشعبية الكبرى، مُتأملاً تجَمع نُذرها فى الأفق، والتقاء روافدها، حتى صنعت هذا الزحف الأسطورى المبهر، وبهذه الصورة البديعة، التى خلبت ألباب العالم، وجعلت قادته يجمعون، منبهرين، على التقييم الرفيع لهذا العمل المصرى العظيم، الذى سيلهم شعوب المعمورة، وشبابها، على كل المستويات، وعن وقائع هذه الأيام الخالدة، أضفت للكتاب فصلا ختاميا، بعنوان : " ثمانية عشر يوما هزّت العالم " .

لقد عانت دولنا من حكم نُظم تسلطية قاهرة، كانت عنوانا لاستعباده وتخلفه، وهاهى فاتحة الثورات الشعبية، تهب من شوارع بلادنا، التى ظن البعض أنها محصّنة ضد رياح الحرية، من تونس الثائرة، ومصر الخالدة، إلى اليمن والجزائر والبحرين والمغرب وليبيا ... تهز أركان الطغيان، وتثبت مُجددا استحقاق بلادنا للديموقراطية، واستعداد شعوبنا لدفع مهرالحرية الغالى .

وإذا كان هذا الكتاب قد مُنع من النشر، بضغوط السلطة فى نهايات العام المنصرم، فهاهى صفحاته ترى النور فى ظل مصر الحرة الثائرة المنتصرة .

لذكرى شهداء ثورة ٢٥يناير الأماجد، الذين عبّدوا طريق حريتنا بدمائهم الطاهرة : نحنى هامتنا إجلالاً، ولشعب الحضارة والكبرياء، الشعب المصرى الأبى ... المجد والعظمة ... ولكل ثائر على الظلم والتسلط فى ربوع الوطن العربى، الفخر والانتصار .

أحمد بهاء الدين شعبان

القاهرة فى : ٢٠١١/٢/٢٥

المقدمة

بعد عقود طويلة من محاولات «تأميم الصراع الطبقى» فى مصر، تحت مزاعم شتّى، وبعدما تخلى النظام الحاكم عن «المقايضة التاريخية»، التى سادت على امتداد العقود الماضية، والتى بمقتضاها تم مصادرة الحريات الأساسية (والسياسية أساساً) للمواطن المصرى، وإطلاق يد النظام فى شئون البلاد وأمور العباد، مقابل كفالة الحد الأدنى الضرورى للحياة، وبانفلات عقال الطبقة الحاكمة الجديدة، التى مثّلت تزاوج رأس المال الحرام مع السلطة الباطشة، ومع انقسام المجتمع إلى قسمين متناقضين: أقلية ضئيلة تملك كل شىء، وأغلبية كبيرة، تضم معظم أبناء الشعب المصرى، تفتقد كل شىء: الأمن، والحاضر، والثقة فى المستقبل، والقدرة على تحمل أعباء حياة أصبحت لا تطاق، وبحيث لم يَعُدْ أمام هذه الأغلبية المُعَذَّبة من بديل عن الجنون أو الانتحار، إلا السعى لتغيير هذا الواقع البائس.

ومن هنا كان من الطبيعى أن تشهد مصر ما تشهده، حالياً، من تصدعات سياسية واجتماعية متصاعدة، أشبه ما تكون بعملية التفاعلات المتسلسلة فى الذرّة، والتى تؤدى حتماً إلى انفجار بالغ العنف والدمار، ينتج عنه خراب هائل، إذا لم يتم إدراك قوانينه الموضوعية الحاكمة، والسيطرة الفعلية على عناصره، وتحويلها إلى قوة بناء إيجابى، تُراكم أسباب التقدم، وتتجاوز بؤس الأوضاع الراهنة، وتؤسس للمستقبل.

ولقد شهدت الأعوام الخمس الماضية، منذ انطلقت صيحة حركة «كفاية»، أواخر عام ٢٠٠٤، كاسرة حاجز الخوف، ودافعة لموجة جديدة من

موجات الحركة فى المجتمع، انشداد قطاعات جديدة من المهنيين والمثقفين والنخب السياسية والثقافية، وبالذات من الشباب، إلى ساحة العمل العام، طلباً للتغيير السياسى والحريات الأساسية، قبل أن تتقدم جيوش العاملين الفقراء، والفلاحين العاطلين والمهشمين والمضارين من سياسات النظام إلى صدارة المشهد، بعدما تعذر على الجميع قبول، أو احتمال، حالة التردى الشامل، التى طالت كل مجالات الحياة فى مصر، ولم يعد من الممكن الاستمرار فى ظل الشعور السائد بالخطر والضياع، وبانعدام فرص الحياة الكريمة، وبشيوع الفساد فى أرجاء الدولة، وبتراجع الدولة عن تقديم أى عون لعشرات الملايين من المواطنين العزل، وبتدهور قيمة مصر والدور الريادى لها فى بيئتها الإقليمية ومحيطها العربى، وفى العالم أجمع!.

ولقد كان من حسن حظى أن شاركت بجهد متواضع، فيما شهده وطننا من تطورات، على امتداد العقود الأربعة الماضية، منذ ساهمت فى قيادة الحركة الوطنية الديمقراطية لطلاب مصر، التى انفجرت بعد هزيمة ١٩٦٧ رفضاً لنتائجها، وتحركا من أجل حفز المجتمع على شحذ إرادته للحرب من أجل استعادة الأرض السليبة والكرامة المهدرة، وحتى المشاركة فى تأسيس «الحركة المصرية من أجل التغيير ـ كفاية»، ودورهما ثابت فى تطور الحياة السياسية والوطنية لمصر المعاصرة. كذلك كان من حظى أن أشارك فى أغلب الهيئات والتجمعات التى نشطت طوال تلك الفترة، على صعيد الدفاع عن الحريات العامة والقيَّم الديمقراطية، وضد الاستغلال والقهر والتعذيب، ومن أجل تثبيت دعائم العدل والمساواة والمواطنة، وفى مواجهة الصهيونية والاستعمار والهيمنة الأمريكية والغربية..

ومن هذا الموقع، المتفاعل بقوة مع المتغيرات والوقائع التى ألمت بوطننا، سَطَّرتُ هذه الكتابات، التى تابعت ـ على امتداد السنوات الثلاث الأخيرة ـ ما

جرى فى بلادنا بدقة، وحاولت أن أرسم ـ عبرها ـ للقارئ العام، صورة «بانورامية» للفوران السياسى والاجتماعى الذى عاشته «المحروسة» يوماً بيوم.

وقد نُشرت أغلب مواد هذا الكتاب فى جريدة «الأخبار» اللبنانية، التى أفسحت لى صفحاتها، لكى أكتب رؤيتى لتطورات الحياة المصرية فى الحقبة الأخيرة، وهى فى مجموعها تشكل سجلاً موارباً بالجدل والصراع والمقاومة والتحدى، يعكس ما يعتمل تحت السطح المصرية من غليان، ويؤكد أن مصر لم تمت أبداً، وأنها تقاوم كل عناصر التحلل وأسباب المرض والترهل والفساد، وتكشف عن حيوية دافقة، تشير إلى أن المستقبل لابد وسيكون أفضل، وأن مصر «المحروسة» عصيَّة على الموت، تملك فى كل لحظة القدرة على التجدد، مثل «أوزوريس» الذى نهض من الموت والدمار والظلام، وأعاد بعث الحياة فى الأرجاء المقدسة.

أحمد بهاء الدين شعبان

القاهرة ٢٠١٠/٧/٥